

الدرس السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسماعين :

باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام

وقوله تعالى ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ [الحج: ٧٨] .

قال المصنف رحمه الله : ((باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام)) ؛ أي ما جاء في التحذير من ذلك والنهي عنه ، وبيان أن الواجب على من حباه الله بالإسلام ومنّ عليه بهذا الدين وأكرمه بأن كان من أهله ؛ أن يكون انتماءؤه إليه ، وانتصاره له ، وعمله لأجله ، ودعوته لتحقيقه ؛ فيجمع الفضائل : فضيلة الامتثال والعمل بالإسلام ، وفضيلة الدعوة إلى الإسلام وإلى شرائعه وأعماله والسعي في نشره ، وفضيلة الانتماء إليه ، وهذه ثلاثة فضائل عظيمة جداً. ومن كانت فيه هذه الفضائل فليس هناك من هو أحسن منه حالاً ، كما قال الله ﷻ في جمع هذه الفضائل العظام الثلاث وبيان أنه لا أحد أحسن ممن كانت هذه حاله قال ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٢] ؛ ثلاث فضائل عظيمة امتدح الله ﷻ المتصف بها وبيّن أنه لا أحد أحسن منه ، فمن منّ الله ﷻ عليه بالإسلام عليه أن يحمده الله تبارك وتعالى على هذه النعمة ، وأن يسعى جاهداً في تكميل إسلامه في نفسه، وتحقيق دينه والسعي في البلوغ به إلى عالي الرتب ، وأيضاً يسعى في نشره ودعوة الناس إليه وترغيب الناس فيه ، قال عليه الصلاة والسلام لعلي عليه السلام ((ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ)) ثم قال له : ((لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ)) ، وفي الآية المتقدمة قال رب العالمين: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ونبينا ﷺ أمر كما جاء في القرآن ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، وأن يكون انتماءؤه إلى هذا الدين ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ؛ وهذا الاسم العظيم اسمُ سمي الله ﷻ به أهل الإسلام في كتابه العظيم القرآن الذي ختم به الكتب المنزلة منه تبارك وتعالى على عباده ، وسماهم بهذا الاسم قبل القرآن ، ولهذا جاء المصنف بهذه الآية التي حُتمت بها سورة الحج مبيّنة عظيمة الانتماء إلى الإسلام والاعتزاء إلى هذا الدين ،

قال ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ ؛ ﴿وَفِي هَذَا﴾ : أي في القرآن الكريم ، و﴿مِنْ قَبْلُ﴾ : أي في الكتب المنزلة قبله على رسل الله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه .

وقوله ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ﴾ : أي الله وليس إبراهيم عليه السلام ، قال قبلها : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ ، فبعض المفسرين قالوا : ﴿هُوَ﴾ : أي إبراهيم ﴿سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ ، ولكن هذا خلاف الصواب ، الصواب أن الذي سمى أهل هذا الدين بالمسلمين هو رب العالمين . ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ﴾ : أي الله ، ﴿وَفِي هَذَا﴾ : أي في القرآن الكريم ، و﴿مِنْ قَبْلُ﴾ : أي في الكتب التي أنزلها على رسله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه . فيكون عمل المرء بالإسلام ، ودعوته إلى الإسلام ، وانتمائه إلى الإسلام ؛ فهو دين الله تبارك وتعالى الذي رضيه ودعا عباده إلى الإيمان به ، وإلى العمل به ، ودعاهم أيضا إلى الانتساب والانتماء والاعتزاء إلى هذا الدين .

فإذا سُئِلَ مَنْ مَنْ الله عليه بدخول هذا الدين وأكرمه بأن كان من أهله عن دينه قال : «ديني الإسلام» ، فهو دينه الذي يدين الله ﷻ به ؛ يحافظ على عقائد الدين ، ويحافظ على أعمال الدين ، ويحافظ على أخلاقه وآدابه ، ويسعى جاهداً في حياته إلى دعوة الناس إلى هذا الدين ، لا يدعو الناس إلى شخصه ، ولا يدعو الناس إلى شهرة يطلبها ، ولا يدعو الناس إلى تحزبات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، وإنما يدعوهم إلى دين الله بالإسلام ، وهمّ انتشار هذا الدين ، قال بعض السلف : «وددت لو دخل الناس في دين الله أفواجا ولو قرّض جسمي بالمقاريض» ، لم يكن همّ الواحد منهم سمعة يكتسبها ، أو شهرة وصيتاً يذيع له ، أو زعامة يطلبها ، أو أصواتاً يكتسبها أو غير ذلك ، وإنما كان همّهم انتشار دين الله ، ودخول الناس في الإسلام ، ومعرفتهم بهذا الدين ، وذهاب الباطل وزهاقه ، وانتشار الحق وعلو كلمته . هذا همّ المسلم ؛ همّ من امتدحه الله ﷻ في الآية المتقدمة بقوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، ولهذا قال المصنف رحمه الله : ((باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام)) .

وأرباب المذاهب الباطلة المنحرفة يُنسب باطلهم إلى من أسسه أو من اخترعه أو من أوجد تلك البدع ؛ فيُنسبون إلى المؤسسين أو يُنسبون إلى البدع نفسها ، أما أهل الحق والاستقامة والتمسك بالإسلام الصحيح فإن نسبتهم إلى هذا الإسلام أو إلى الألفاظ الشرعية التي تدل على حقيقة الإسلام الخالص ، فهي تسمية صحيحة شرعية تدل على حقيقة الإسلام الخالص ؛ مثل تلقيب من ليسو من أهل البدع الذين هم أهل المحافظة على الإسلام الخالص والدين الصحيح البعيدون عن البدع والخرافات والضلالات ونحوها بـ«أهل السنة والجماعة» ، فهذه

التسمية تسمية صحيحة لأنها نابعة من الإسلام وهي انتساب إلى الإسلام ، ليست انتساباً إلى شخص ، ولا انتساباً إلى حزب ، ولا انتساباً إلى شعار من الشعارات الزائفة ؛ وإنما هو انتساب إلى الإسلام ، لأن الإسلام حقيقته تمسك بالسنّة ولزوم للجماعة .

قال: ((باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام)) ؛ أي باعتزاء لأشخاص أو شعارات أو نحو ذلك ينبغي عليها التفرق وتشيع الناس إلى شيع وأحزاب وتفرق كلمتهم واختلال صقّهم وأن يدب الوهن والضعف فيهم، فهذا أمرٌ ذمه الله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] ، والواجب أن ينضوي أهل الإسلام تحت الإسلام ملتزمين به ، محافظين على شعائره ، منتمين إليه ، داعين إليه .

قال رحمه الله :

وعن الحارث الأشعري رحمه الله عن النبي ﷺ أنه قال : ((أَمُرُّكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ : السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ وَالْجَمَاعَةُ ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرَاجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ)) فَقَالَ رَجُلٌ : «يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟» قَالَ : ((وَأِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ)) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح .

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما وسياقه طويل ، واقتصر المصنف رحمه الله على موضع الشاهد للترجمة من الحديث ، ولكن لأهمية سياق الحديث ولعظيم ما فيه من فوائد نذكر الحديث بتمامه ؛ فعن الحارث الأشعري رحمه الله أن نبي الله ﷺ قال : ((إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، فَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ فَقَالَ لَهُ عِيسَى ﷺ : إِنَّكَ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ؛ فَإِنَّمَا أَنْ تُبْلِعَهُنَّ وَإِنَّمَا أَنْ أُبْلِعَهُنَّ ، فَقَالَ : يَا أَخِي إِنِّي أَحْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذِّبَ أَوْ يُحْسَفَ بِي ، قَالَ : فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ فَقُعِدَ عَلَى الشَّرَفِ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمُرُّكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ ؛ أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصٍ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ - هذا مثل المشرك - فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ - يعني يعمل ويعطي الغلة لغير السيد!! - وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَكُمْ وَزَرَقَكُمْ فَأَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)) تأمل هذا المثل البديع الذي يوضح حال المشرك ؛ حال المشرك مثل رجل عنده عبد اشتراه بخالص ماله ثم يعمل ذلك العبد ويعطي الغلة والمكسب والربح لغير السيد ، والله ﷻ خلق العبد وأوجده من العدم ويزقه صنوف النعم وأنواع

المنن ثم يجعل عبادته ودعائه لغير الله تبارك وتعالى !! ، قال: ((وَأْمُرْكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا ، وَأْمُرْكُمْ بِالصَّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُورَةٌ مِنْ مِسْكِ فِي عَصَايَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، وَأْمُرْكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُقْبِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُقْبَهُ فَقَالَ هَلْ لَكُمْ أَنْ أَقْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَ نَفْسَهُ - هذا مثل الصدقة والإنفاق في سبيل الله - ، وَأْمُرْكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ - أي أدركه عدوه ولحقه عدوه - فَأَتَى حَصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)). . انتهت وصايا يحيى لقومه ، وقد ذكرها النبي ﷺ منوهاً بها مبيناً عظمتها ومكانتها ، وهي وصية بالتوحيد ، ووصية بالصلاة ، ووصية بالصيام ، ووصية بالصدقة ، ووصية بالإكثار من ذكر الله ﷻ ، مع ضرب مثل لكل وصية من هذه الوصايا الخمس يبين مكانة هذه الوصية وعظيم منزلتها .

ثم إن نبينا ﷺ لما أنهى ذكر هذه الوصايا -وصايا يحيى عليه السلام- قال: ((وَأَنَا أْمُرْكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ : السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْجِهَادُ وَالْهَجْرَةُ وَالْجَمَاعَةُ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُقْبِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجَعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُنَّا جَهَنَّمَ)) فقال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وصام ؟ قَالَ وَإِنْ صَلَّى وصام فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ)) . المصنف رحمه الله ساق هذا الجزء من الحديث المشتمل على وصايا نبينا الكريم ﷺ الخمس لأئمة وأمره أئمة بهن ، وقال: ((إِنِّي أْمُرْكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ)) ؛ فالله ﷻ أمر بها نبيه عليه الصلاة والسلام ، ونبينا ﷺ أمر بها أئمة مبلغاً ما أمره الله تبارك وتعالى به . فذكر هذه الوصايا الخمس .

قال : ((السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ)) ؛ هذه الوصيتان الأوليان : السمع والطاعة ؛ أي السمع لمن ولّاه الله ﷻ أمر المسلمين . وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بذلك ((عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ)) ، ((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا)) ، وهنا قال ((السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ)) أي : لمن ولّاه الله ﷻ أمر المسلمين ؛ يُسمع كلامه ويطاع أمره ، وذلك لأن الإسلام وجماعة المسلمين واجتماع كلمتهم والتمائم شملهم وانتظام أمرهم لا يكون إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ، فجماعة المسلمين واجتماعهم على الإسلام مطلوب ، والاجتماع على الإسلام واجتماع الناس عليه وكون كلمتهم واحدة هذا لا بد فيه من إمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ؛ ولهذا جاء الإسلام بالتأكيد على السمع والطاعة ؛ جاء ذلك في القرآن وجاء ذلك أيضاً في سنة النبي ﷺ ؛ في القرآن قال الله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَّ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] ، والسنة مليئة بالأحاديث عن النبي ﷺ في الأمر بالسمع والطاعة لمن ولّاه الله ﷻ أمر المسلمين ، يُسمع ويطاع حتى وإن لم يكن هذا الذي ولي أمر المسلمين عدلاً

، حتى وإن لم قائماً بالعدل ، حتى وإن كان عنده ظلم وشيء من الحيف ، ولهذا أكد النبي ﷺ على ذلك قال : ((اسْمَعْ وَأَطِعْ ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ)) ؛ لماذا؟ لأن نزع اليد من الطاعة والخروج من السمع فيه شق لكلمة المسلمين ، فيه تفرقة لصفهم ، فيه خلخله لجماعتهم ، فيه زعزعة لأمنهم ، بل فيه إراقة دماء ، وانتهاك أموال ، وانتهاك أعراض ، واختلال للأمن ، وذهاب للكلمة ، ولهذا جاء الإسلام بالسمع والطاعة والصبر ، يصبر على ظلم الولاة إن وُجد ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله : «اصبر حتى يستريح برّ أو يُستراح من فاجر» . فجاء الإسلام بالوصية بالسمع والطاعة وعدم نزع اليد من الطاعة وعدم الخروج على الجماعة ؛ لما في ذلك من الشر العظيم والفساد العريض .

والطاعة التي أمر بها هنا في قوله ((السمع والطاعة)) ليست طاعة مطلقة في كل ما يأمر به ، ولهذا قال الله ﷻ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ولم يقل "وأطيعوا أولي الأمر منكم" ، لأنه ليس له طاعة مطلقة ، يبين ذلك قول النبي ﷺ : ((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ)) و ((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ)) ، فإذا أمر بمعصية لا يطاع ، يعني إذا أمر بترك الصلاة أو أمر بشرب الخمر أو بالفواحش لا يطاع ، ولا أيضا تُشق العصا وإنما يُمتنع من طاعته فيما يدعو إليه من حرام ومن الأمور التي نهى الرب تبارك وتعالى عنها لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

قال : ((السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْجِهَادُ)) ؛ أي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولنصر دينه تبارك وتعالى ، وأيضا الجهاد الذي هو أساس هذا الأمر وهو جهاد النفس على طاعة الله ﷻ والبعد عما حرم ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)) ، ومن انهزم أمام نفسه ولم يجاهدها في طاعة الله ليس أهلاً أن يجاهد العدو الخارجي وهو لم يجاهد العدو الداخلي الذي بين جنبيه ، من لم يجاهد نفسه على طاعة الله فلا يستطيع أن يجاهد نفسه ليصلي الفجر مثلاً ليس أهلاً أن يجاهد العدو . ولهذا قال بعض أهل العلم مشيراً إلى هذا المعنى وملححاً إلى هذه الحقيقة : «أعظم أسباب النصر المحافظة على صلاة الفجر» ، قاصداً بذلك الإشارة إلى هذا المعنى ؛ من لم يجاهد نفسه على الصلاة وخاصة صلاة الفجر التي هي باكورة اليوم ومفتحه وينهزم أمام نفسه فينام عن الصلاة ويقدم النوم على هذه الصلاة هذا ليس أهلاً أن يجاهد عدواً أو أن ينصر ديناً ، لأنه لم ينصر دين الله ﷻ في نفسه فليس مؤهلاً أن ينصر دين الله ﷻ وأن يكون من أعوان نصر دين الله ﷻ ، من لم ينتصر على نفسه ليس أهلاً أن ينتصر لدين الله ﷻ ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)) ؛ فالذي يجاهد نفسه في طاعة الله تاهل بهذا الجهاد لنصرة دين الله تبارك وتعالى ، أما إذا كان منهزم أمام ألد أعدائه وهي نفسه التي بين جنبيه تذهب به إلى كل حرام وتجنح به إلى كل باطل وتبعده عن كل فضيلة وهو منهزم أمامها ، فهذا من باب أولى أن يكون منهزماً أمام عدوه ، ولهذا أعظم أسباب تسلط الأعداء على المسلمين هي هزيمة المسلمين الداخلية مع أنفسهم ، عندما يُهزم المسلم داخلياً مع نفسه فيضيع دينه

ويغشى الحرام ولا يبالي ويضيق الواجبات ولا يبالي فيكون بهذه الهزيمة يُهزم من الأعداء ، وإذا انتصر على نفسه بالمحافظة على الدين ورعاية هذا الدين فالله جل وعلا ينصره ويمكن له ، وتأمل هذا في قول الله ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] ؛ أمن وتمكين وعز ونصرة ، والشرط : ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ؛ يؤمنون ويعملون الصالحات . فالجاهد من جاهد نفسه على طاعة الله تبارك وتعالى ، وبهذا يتأهل لأن يكون من أنصار الدين وأعدائه .

قال: ((وَالْهَجْرَةُ)) ؛ هذا اللفظ العظيم يتناول الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، ولما كانت مكة دار كفرٍ كانت الهجرة منها واجبة ، ثم لما فتح النبي ﷺ مكة قال: ((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)) لأنها أصبحت دار إسلام والكلمة فيها للإسلام ليست للمشركين ، و ((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)) : أي من مكة ، أما ديار الكفر فالهجرة منها إلى ديار الإسلام باقي الحكم ؛ لكن ((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)) أي من مكة لأنها أصبحت دار إسلام فلا هجرة منها واجبة لأنها أصبحت دار إسلام .

وكذلك ((الهجرة)) تتناول : هجرة المعاصي والذنوب والتوبة منها والإقبال على الله ﷻ ، ولهذا أيضا صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)) ؛ هذا ذكره النبي ﷺ في خطبة له في حجة الوداع قال : ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُسْلِمِ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)) .

فالهجرة تكون بالانتقال من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، وأيضا تكون الهجرة بهجر البدع بتركها والبعد عنها إلى السنة ، وترك المعاصي والذنوب إلى الطاعة ؛ فيتوب إلى الله ﷻ من البدع ، ويتوب إلى الله من المعاصي ، ويقبل على الله ﷻ تائباً منيباً ، فهذه هجرة إلى الله تبارك وتعالى وإلى دينه وإلى سنة نبيه ﷺ . وهذه المعاني تكلم فيها بإجادة وإفادة بدیعة ابن القيم رحمه الله في رسالة له صغيرة عنوانها «الرسالة النبوكية» عظيمة الفائدة في هذا الباب، وتكلم عنها بتوسع في كتابه «طريق الهجرتين» .

قال: ((وَالْجَمَاعَةُ)) وهذه الوصية الخامسة ؛ الأولى: السمع ، والثانية: الطاعة ، والثالثة: الجهاد ، والرابعة: الهجرة ، والخامسة: الجماعة .

والجماعة : أي لزوم جماعة المسلمين . ولزوم الجماعة يتناول لزوم أمرين :

❖ الأول : لزوم الحق الذي عليه جماعة المسلمين ؛ وهو دين الله ﷻ ، ومن لزم الحق الذي يجب أن يكون عليه أهل الإسلام وأهل الدين فهو جماعة ولو كان وحده بلزومه للحق ، ولهذا قال الله ﷻ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بلزوم الحق والمحافظة عليه .

❖ والأمر الثاني في الجماعة : لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ؛ فإذا كان المسلمون مجتمعون وكلمتهم مجمعة على إمام واحد فالسمع والطاعة واجب ، ولزوم الجماعة واجب ، ونزع اليد من الطاعة محرم وذنب عظيم وجرم وخيم يجر على صاحبه وعلى غيره هلكة وشر في دينه ودنياه ، ولهذا لزوم الجماعة جاء التأكيد عليه في أحاديث كثيرة، بل قال عليه الصلاة والسلام ((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ)) وهذه كلمة دالة على حقيقة الأمر بأحسن ما يكون وأوجز ما يكون ؛ ((الجماعة رحمة)) ، لما يكون المسلمون مجتمعون على إمام واحد حتى لو كان هذا الإمام ظالم وجائر وعنده نقص ؛ اجتماعهم عليه خيرٌ من تفرقهم بلا إمام ، لأن تفرق الناس بلا إمام يعني إراقة الدماء ، يعني انتهاك الفروج والحرمات ، يعني انتهاك الأموال ، يعني اختلال الأمن ، لا يستطيع الناس أن يجلسوا في المساجد ، ولا يستطيعون أن يطلبوا العلم ، ولا يستطيع الإنسان أن يحفظ ماله أو عرضه أو أهله أو بيته إلى غير ذلك ، كل هذه تضيع ، ولكن إذا كان عليهم إمام ولو كان فيه شيء من الجور أو الظلم أو الأثرة بالمال أو نحو ذلك هذا أرحم لهم ((الجماعة رحمة)) ، ((والفرقة عذاب))؛ الفرقة ويلات على الناس وشر وبلاء لا يعلم به إلا الله ﷻ .

ولهذا جاء الإسلام بحفظ الجماعة والمحافظة عليها ، وأن يجتمع الناس على إمامهم وعلى أميرهم وأن يسمعوا له ويطيعوا ويحافظوا على جماعتهم بإصلاحها لا بإفسادها ، الخروج على جماعة المسلمين ليس إصلاحاً بل هو إفساد، وإراقة للدماء ، واختلال للأمن ، وضياح للكلمة وتجرئة لأعداء الدين على أهله ؛ ليس فيها خير، الخير في اجتماع المسلمين واجتماع كلمتهم ، ولهذا جاء الإسلام ليس بالخروج على ولي الأمر وإنما بالنصيحة له ، قال عليه الصلاة والسلام : ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)) ؛ ولأئمة المسلمين : بالنصيحة لهم ، لا بالخروج ونزع اليد من الطاعة وشق العصا وتفرقة الكلمة ؛ فهذا كله شر ، ومن مارسوا هذه الأمور بنية الإصلاح لم يترتب على هذه الممارسة على مر التاريخ إلا الفساد ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رصده له لمن مارسوا مثل هذه الأعمال : «فما أقاموا ديناً ولا أبقوا دنياً» ؛ لا يقام الدين بمثل هذه الممارسات ، ولا تبقى دنيا الناس ؛ بل يحصل فساد عريض وشر كبير ، ولهذا جاء الإسلام بحفظ الجماعة .

وأعيد ما قدمته وهو : أن أمر المسلمين لا ينتظم إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا جاءت هذه الأمور مرتبطة ؛ الوصية بالسمع والطاعة والوصية بلزوم الجماعة . يقول العرباض بن سارية رضي الله عنه ((وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ لَهَا الْأَعْيُنُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُوَدَّعٍ فَأَوْصِنَا ، قَالَ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى بَعْدِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّدِينَ ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) . فلزوم الجماعة بلزوم الحق ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم

وعدم الخروج ؛ هذا من الأمور التي أكد النبي ﷺ عليها تأكيداً عظيماً في أحاديثه ، بل إنه ﷺ ثبت عنه أنه قال في خطبة له في حجة الوداع : ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ - وفي رواية اعبدوا ربكم - وَصَلُّوا حَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ)) لاحظ؛ قرن طاعة ولي الأمر ورتب عليها دخول الجنة قرنها بالصلاة والصيام والزكاة وكلها رتب عليها دخول الجنة قال ((أطيعوا ذا أمركم)) .

وإذا وجدت الشبهات بين الناس في هذا الباب أفست عليهم قبول أحاديث النبي ﷺ التي فيها الأمر بالسمع والطاعة - ولنتنبه لهذا - تجد بعض الناس إذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالصلاة انشرح صدره ، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالصيام انشرح صدره لحديثك ، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالزكاة انشرح صدره لحديثك ، وإذا تلوت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة انقبض صدره واستوحش ، هذا الانقباض وهذه الوحشة من السنة ومن الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة سببها الشبهات والأهواء التي تدخل على النفوس ؛ وإلا كلها سنن ، كلها دين ؛ ((وَصَلُّوا حَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ)) الذي أمر بطاعة ولي الأمر هو الذي أمر بالصلاة هو الذي أمر بالصيام ؛ فلماذا آيات الصلاة والصيام والحج تُقبل بانسراح ، والأحاديث والآيات المتعلقة بما يتعلق بولي الأمر تُقابل باستيحاش !! لولا الأهواء التي تدخل على النفوس وعلى القلوب فتُمِرُّضها وتصدها عن دين الله ﷻ .

ولهذا ينبغي على المسلم أن يعالج نفسه بالسنة ، وأن يقرأ أحاديث النبي ﷺ وأن يؤمِّرها على نفسه ، قال بعض السلف : «من أَمَر السنة على نفسه نطق بالحكمة» ، لكن الذي يؤمِّر الهوى على نفسه ينطق بالبدعة وبالضلالة، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يؤمِّر السنة على نفسه بمعنى أن يجعل السنة هي قائده .

لما ذكر الوصية بالجماعة قال مؤكداً : ((فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شَبْرٍ)) ؛ لاحظ هذه الكلمة «قَيْدَ شَبْرٍ» ، قيد بكسر القاف أي قدر شبر ، والشبر قدر يسير جدا . مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شَبْرٍ يعني ولو مسافة قليلة ولو جزءً يسيراً ولو أمراً قليلاً ((فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرَاكَ)) .

((مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ)) ؛ أي جماعة المسلمين ونزع اليد من الطاعة وخرج على جماعة المسلمين يقول عليه الصلاة والسلام: ((فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ)) ؛ الرَبْقَةُ في اللغة : هي الحبل الذي يُلف به عنق الدابة حتى لا تشرذم وحتى لا تضيع وحتى لا تكون نهباً للسباع تأكلها ، ومن خرج من الجماعة أصبح نهباً للسباع وعرضة للضياع والهلكة ، ولهذا قال: ((مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شَبْرٍ)) أي قدراً يسيراً قليلاً ((فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ)) ؛ لأن هذا ضياع للدين ، الدين يتحقق بالأمن والطمأنينة وهذه الأمور إضاعة للكلمة ونشر للشر والفساد ، ولهذا إذا وُجد في بلدٍ من البلدان مثل هذه الأمور اختل الدين وقويت شوكة أهل الباطل وضعفت كلمة أهل الحق ، ولم يتمكن الناس من الصلاة في مساجدهم ولم يتمكنوا من طلب العلم ولم يتمكنوا من أبواب الخير ، ويضيع أمرهم .

قال: ((فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرَاكَ)) ؛ يعني يتوب إلى الله ﷻ من هذا الافتيات وهذا الخروج وهذا النزاع والمفارقة لجماعة المسلمين .

قال: ((وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)) ؛ دعوى الجاهلية : أي عزائها وهو عصبيتها ؛ إما عصبية لعرق ، أو لقبيلة ، أو لشخص ، أو لفئة أو نحو ذلك ، عصبية عمياء على الحق والباطل ، وعلى الهدى والضلال ، وانتصاراً في هذا التعصب لمن يتعصبون له حتى في ظلمه وعدوانه وبغيه . كان أهل الجاهلية إذا اعتدى أحدهم على آخر ثم غلبه من اعتدى عليه نادى هذا المعتدي الظالم الباغي عشيرته : "يا لفلان" ، ثم جاءوا منتصرين له على ظلمه ؛ عصبية جاهلية ، وانتماءات باطلة ، ونصرة للظلم والهوى والضلال ، هذه دعوى الجاهلية ؛ ينصرون الظالم بإعانتهم على ظلمه وعلى بغيه وعلى عدوانه .

قال: ((وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)) ؛ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ: أن يوجد لنفسه انتماءً حتى ولو كان هذا الانتماء انتماءً مباح مثل: الانتماء إلى القبيلة ، أو الانتماء إلى البلد الذي وُلد فيه ونشأ فيه الإنسان ، هذا انتماء مباح لا شيء فيه ، أو الانتماءات أيضاً المستحبة مثل : انتماء الإنسان للهجرة "مهاجر" ، أو النصرة "أنصاري" ؛ هذه انتماءات صحيحة كلها ، لكن إذا جعلت هذه الانتماءات من أجل التعصب الباطل ودعوى الجاهلية وعزائها فهذا أمر محرم جاء الإسلام بتحريمه والمنع منه كما سيأتي بيان ذلك .

قال: ((وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنَّا جَهَنَّمَ)) ؛ من جُنَّا جَهَنَّمَ : أي من جماعاتها الذين يلقون فيها ومن حطبها ووقودها ، فَإِنَّهُ مِنْ جُنَّا جَهَنَّمَ أي أن الله يلقيه في النار يوم القيامة . وهذا وعيد شديد لمن كان بهذا الوصف «مِنْ جُنَّا جَهَنَّمَ» وأيضاً ضُبطت ((من جُنِّي جَهَنَّمَ)) أي ممن يجثون في جهنم . والجثي : هو على الركب ؛ جثي يجثو جثيًا أي على ركبته ، فهو من جثي جهنم ؛ ممن يجثون في جهنم أي يُلْقُونَ فيها .

((فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ!!)) ؛ يعني من دعا بدعوى الجاهلية حتى وإن كان من أهل الصلاة ومن أهل الصيام ولكنه يدعو بدعوى الجاهلية فهل أيضاً العقوبة نفسها ؟

((قَالَ : وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ)) ؛ يعني حتى وإن كان محافظاً على الصلاة محافظاً على الصيام ؛ من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم . ((قَالَ : وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ)) أي فهو كذلك حتى وإن صلى وصام .

((فَادْعُوا اللَّهَ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ)) وجاء في بعض الروايات قال: ((فادعوا المسلمين بما سماهم الله؛ المسلمين المؤمنين عباد الله)) ، وهنا قال: ((فَادْعُوا اللَّهَ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ)) ؛ ولهذا انتماء الإنسان من باب التعريف لبلده أو لقبيلته هذا أمر مباح ؛ أنا من قبيلة كذا أنا من بلد كذا هذا مباح ، أما إذا كان هذا الانتماء نوع من عزاء الجاهلية ودعوى الجاهلية وتعصب للعشيرة أو للبلد بالحق والباطل ، بالهدى والضلال ، بالسنة والبدعة فهذا أمر محرم ، وهذه هي دعوى الجاهلية التي حذر منها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح ((مَنْ فَارَقَ الْجُمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَمَاتَ؛ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)) ، وفيه ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!)) قال أبو العباس : «كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية ، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري: يا للأنصار قال ﷺ ((أبدعوى الجاهلية وأنا بي أظهركم)) وغضب لذلك غضبا شديدا» .

انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

قال وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال ((مَنْ فَارَقَ الْجُمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ)) : أي قدر شبر كما تقدم .
((فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)) وهذا فيه وعيد لأن ميته كانت على هذه الجاهلية ، جاهلية أهل الشرك والضلال الذين من شأنهم مفارقة الجماعة ، ومن شأنهم عدم السمع والطاعة ، ومن شأنهم ترك التوحيد ؛ هذه الأمور الثلاث من أبرز صفات الجاهليين : ترك التوحيد ، ومفارقة الجماعة ، وعدم السمع والطاعة ، يأنف الواحد منهم أن يسمع ويطيع للأمر ويستكبر عن السمع والطاعة ؛ مع أن السمع والطاعة فيه انتظام للكلمة واجتماع للصف ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إِحْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَمُنَاصَحَةُ أُمَّةٍ الْمُسْلِمِينَ ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ)) ، لا يغل : يعني لا يجد قلب المسلم على هذه الأمور غل ، بل يقبلها بانشرح وطمأنينة ، أما المشركون ففي قلوبهم غل لهذه الأمور الثلاث .

ومن فارق الجماعة ففيه شعبة من شعب الجاهلية التي كان عليها أهل الجاهلية ، ولهذا مصنف هذا الكتاب في كتابه الذي سبق أن أشرت إليه «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» بدأ بهذه الأمور الثلاث؛ لأنها أبرز صفاتهم : ترك التوحيد وترك السمع والطاعة وترك الجماعة ، ((فمن فارق الجماعة قِيدَ شِبْرٍ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) ، لأن هذه من خصالهم ومن شعب الجاهلية ليست من شعب الإسلام ، فمن مات على هذه الحال مات ميتة جاهلية.

قال: ((وفيه)) أي في الصحيح ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم)) أي لم أمت بعد ؛ أبدعوى الجاهلية يعني تدعون وأنا بين أظهركم لم أمت بعد !! وهذه قالها النبي ﷺ في قصة حصلت كما جاء في الصحيحين وهي أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة فَكَانَ أَحَدُ الْمُهَاجِرِينَ لَعَابًا ، قالوا في شرحها : أي كثير اللعب ؛ يحب المزاح واللعب ، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا ؛ قالوا كَسَعَهُ : أي ضربه مع قفاه بيده أو بظهر طرف قدمه ، يحب اللعب ويحب المزاح فمن باب المزاح واللعب ضربه بيده أو بطرف قدمه ، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا ، وهما شابان ، فَقَالَ "يَا لِلْأَنْصَارِ" ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: "يَا لِلْمُهَاجِرِينَ" ، فبلغ النبي ﷺ هذه المقالة فقال: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم)) ؛

لاحظ مجيء هذه الكلمة في هذا الوقت وقت انتصار كل ينتصر لصاحبه أيًا كانت صفة صاحبه ، هذا يقول "يا للمهاجرين" وهذا يقول "يا للأنصار" ، وكل يطلب النصرة من جماعته أو ممن هو منهم ، وينتصرون له كيفما كان الأمر !! هذا عزاء الجاهلية .

الانتماء للمهاجرين والانتماء للأنصار ؛ هذا الاسم «مهاجر» و«أنصار» اسم شرعي أو غير شرعي ؟ الله ﷻ سماهم به ؛ مثل ما سماهم مسلمين سماهم مهاجرين ، اسم شرعي ، قال الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر: ٨] ، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] ؛ فهو اسم شرعي سماهم الله ﷻ به ، ليس هو من الأسماء المباحة التي هي انتماء الإنسان لقبيلته أو بلده - هذا مباح إذا كان مجرد التعريف - بل هذا اسم ممدوح شرعاً والله سماهم به ، الذي سماهم مسلمين سماهم أيضاً مهاجرين وسماهم أنصار في غير ما آية في القرآن ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ؛ فالتسمية من حيث هي صحيحة أو لا؟ وشرعية أو غير شرعية؟ اسم سماهم الله به ، والحديث الذي مر معنا قريباً قال: ((فادعوا المسلمين بما سماهم الله به)) ؛ هذا اسم سماهم الله به .

فإذا قيل في إنسان هذا مهاجر ، أو واحد من أنصار الدين قيل أنصاري هذا صحيح أو خطأ؟ ؛ هذا اسم شرعي صحيح لا شيء فيه ، لكن لما جاء في هذا الموضع موضع عزاء الجاهلية كل ينتصر أو يطلب النصرة سواء بالحق أو بالباطل فهذا ذمه الإسلام ، ولهذا لو رُفعت في الإسلام شعارات صحيحة تجلب للناس عصبية باطلة وفرقة واختلافاً تُمنع إذا كانت رُفعت لأجل هذا الغرض . ولهذا لما قال الأنصاري "يا للأنصار" ، وقال المهاجري "يا للمهاجرين" قال النبي ﷺ: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!!)) فبينوا له ﷺ القصة وسبب ذلك وقالوا إن المهاجري كسع الأنصاري فقال ﷺ: ((دَعُوها فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ)).

الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام حذر من ذلك أشد التحذير .

ثم نقل المصنف كلاماً عظيماً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو في كتابه «السياسة الشرعية» في الصفحة السابعة والتسعين قال : ((قال أبو العباس : كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية)) ؛ هل يقصد شيخ الإسلام بقوله «من نسب أو بلد أو جنس» حرمة الانتماء إلى البلد أو النسب أو الجنس للتعريف؟! عندما يقال لأحدنا من أنت ؟ يقول من قبيلة كذا ، أو أنا من بلد كذا؛ للتعريف ، هل هذا مقصود هنا ؟ لا ؛ المقصود هنا دعوى الجاهلية وهي الانتماء بتعصب للبلد أو النسب أو نحو ذلك بالحق والباطل ، بالهدى والضلال ، قال : ((من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية)) ، وعزاء الجاهلية : هي دعوى الجاهلية وتعصباتها الباطلة التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان .

قال: ((بل لما أختصم مهاجري وأنصاري - في القصة التي أشرت إليها وهي في الصحيحين - فقال المهاجري يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري يا للأنصار قال رسول الله ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم !! وغضب لذلك غضباً شديداً . انتهى كلامه -أي كلام ابن تيمية- رحمه الله)) ؛ وغضب لذلك غضباً شديداً : أي غضب لهذا العزاء ولدعوى الجاهلية الباطلة وتعصباتها المقيمة التي تفرق ولا تجمع ، وتمزق الكلمة ، وتفرق الصف وتوجد العدوات ، ولا يترتب عليها خير ، ولهذا قال ﷺ ((أبدعوى الجاهلية)) يعني تدعون!! وبعزاء الجاهلية تعلنون!! ((وأنا بين أظهركم)) أي حي بينكم لم أمت بعد ، قال ذلك عليه الصلاة والسلام محذراً من ذلك أشد التحذير .

أشير مرة ثانية إلى أن "مهاجري وأنصاري" هذه أسماء شرعية سماهم الله بها في القرآن ، فهي ليست خارجة عن دعوى الإسلام والقرآن ؛ هي تسمية صحيحة ، تسمية شرعية ليست مباحة فقط وليس مكروهة ، بل هي مستحبة ؛ أسماء امتدحها الله وامتدح أهلها وأثنى عليهم . ابن تيمية رحمه الله في «اقتضاء الصراط المستقيم» قال : «هذه الأسماء مستحبة ليست مباحة ولا مكروهة لأن الله سماهم بها في القرآن» ، لكن إذا أعلن هذا الاسم وُرفِع من أجل تفرقة وعزاء الجاهلية فهذه دعوى الجاهلية ، حتى وإن كان الاسم شرعياً إذا قُصد به التعصبات الباطلة وإيجاد العدوات والشحناء ونحو ذلك .

المصنف رحمه الله أورد هذه الترجمة في كتابه «فضل الإسلام» ليبين مكانة الإسلام ووجوب الانضواء تحت لوائه ، والسعي في نصرته ، والانتماء إليه ، وأن يكون همّ الإنسان تحقيق الإسلام في نفسه ودعوة الناس إليه .

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه